(٢)
وعد الغجرية

وقريبا مِن الحديقة الدولية وذلك المكان الذي تمَّ العثور فيه على جثة المجنون مالك الأمير كان هناك تلك الإشارة التي تجمع كثيرا مِن المتسولات وبعض المتسولين ، والتي تقطع شارعي الطيران ومصطفى النحاس بين مطعم البرج ومسجد نوري خطاب في منطقة مبنى الحي ودار طالبات جامعة الأزهر أول الحي السابع ، وكانت تلك الإشارة مقصد مالك المجنون كثيرا .. كان يقصدها في البداية دون هدف ، وهل لمجنونٍ أنْ تكون له أهدافٌ في الحياة إلا إذا كان كيعقوب الأصفر؟

وكانت حاكمة هذا المكان امرأة اسمها (وعد قابيل المحروس) .. كانت تصغره بأكثر مِن عشر سنوات ، وكان يعرفها وتعرفه جيدا ، عرفته عاقلا ، وعرفته مجنونا ، وعرفها امرأة سيئة السمعة ، ثم صارت تمنحه كلَّ شيء تهفو نفسه إليه ، الطعام والشراب والثياب ، وأشياء أخرى كثيرة ، أغلبها قذرة .

وأما عن وعد فهي امرأةٌ غجريةٌ شابةٌ مِن النَّور ، والغجر الموجودون في مصر ينتمون إلى مجموعة "الدومر" إحدى المجموعتين الأساسيتين اللتين تشكلان مجتمعات الغجر على مستوى العالم ، والمجموعة الثانية هي مجموعة "الرومن" ، وتلك تسكن أوربا ، وفي مصر ينقسم غجر "الدومر" إلى مجموعات عرقية أخرى هي (النَّور و الحلب والمساليب)

وأما عن أصل الغجر ، فمنهم مَن يُعِيد أصلهم إلى أنصار قابيل الذي قتل هابيل ، حيث حُكِمَ عليهم بالتشرد والترحال وعدم الاستقرار بمكان ، ومنهم مَن يُعِيد أصلهم إلى أبناء جسَّاس بن مُرَّة ابن عم الزير سالم ، صاحب الحكايات الشعبية والصراعات المشهورة ، والتي انتهتْ بانتصار الزير سالم ، ومِن هنا جاء اسمهم الأجنبي (جيبسيس) ، ولكن هذا الأمر لا يمكن الوثوق به ، ولكن ما يمكن الاستناد إليه بثقة أنَّ الغجر لعبوا دورا كبيرا في حفظ قصص السيرة ، حيث تفننوا في روايتها بالغناء الشعبي الذي برعوا فيه ، إلى جانب الرقصات والألعاب الشعبية ، والتي تُعَدُّ مصدر بهجة وسعادة في حياة المجتمع المصري .

ويقول البعض : "لولا الغجر لضاعت السيرة الهلالية التي تفننوا بها ، فهي جزء مِن هوية الثقافة المصرية ، ويرجع ذلك إلى أنها كانت مورد رزق لهم ، لذلك نجد أنَّ معظم رواة هذه السيرة هم مِن الغجر، والتي تأتي على شكل غنائي احترافي مذهل تجعل الناس ترحل إليهم لسماع قصص السيرة منهم" .

وإنَّ كثيرا مِن الأغانى الشعبية الموروثة يعود الفضل في حفظها إلى الغجر وخاصة النساء ، حيث كنَّ يذهبن إلى الفلاحين في الأراضى الزراعية للغناء لهم مقابل القليل مِن المال أو الحبوب ، وحاليا يتجولون أسفل المنازل في شوارع الأحياء الغنية ، يغنون ويضربون الدفوف والطبول لتسقط عليهم الأموال والمساعدات مِن الشرفات ، ودائما فإنَّ نساء الغجر يحترفْنَ الرقص في الأفراح ، ويتغنَّيْن بالبطولات والغزوات ، لذلك أطلق المصريون على الراقصات الغجريات اسم (الغوازي)

ويَصْعُبُ حصر أعداد الغجر في مصر في الوقت الراهن ، وتشير بعضُ الدراسات إلى أرقامٍ تقريبية يصعب التأكد منها ، وسبب ذلك أنَّ الكثيرين منهم غير مُسجَّلين في دفاتر المواليد ، وما زال معظمهم يعيشون الحياة الغجرية الأولى ، حيث لا توجد لهم شهادات ميلاد رسمية ولا حتى بطاقات هوية ، أما المسجَّل منهم فلا تعرف الدولة إنْ كان غجريا أم لا .

كما انخرط بعضُ الغجر في حياة الناس المدنية ، لكنهم يخشون ذكر أصولهم خوفا مِن نظرة المجتمع الظالمة لهم ، وصار الغجر القاطنون في المدن يسمحون لأبنائهم بالتعليم خلافا لأسلافهم القدماء ، فابتعد بعضهم عن العادات والتقاليد الخاصة ، لكن ذلك لا يمنع أنَّ بعض الغجر ما زالوا يتحدثون فيما بينهم بلغتهم الخاصة للحفاظ عليها وحفظ موروثهم الشعبي .

ويمكن حصر أماكن تواجدهم في حوش الغجر بسور مجرى العيون في حي مصر القديمة بالقاهرة ، وفي حي المقطم وأبي النمرس وحي منشية ناصر العشوائي ، كما يتواجدون في حي غبريال بالإسكندرية ، وقرى سنباط ، وقرى طهواي بمحافظة الدقهلية التي يُقال أنَّ بها حوالي خمسة آلاف غجري ، وأماكن أخرى كثيرة متعددة ، ويقدر البعضُ أرقامَ الغجر في مصر بين نصف المليون والمليون نسمة ، لكن لم يُعْرَف حتى الآن على وجه الدقة التاريخ الذي قدم فيه الغجر إلى مصر، فالبعض يشير إلى منتصف القرن السادس عشر، فيما يرجح البعض أنهم أتوا إليها مع بداية حكم محمد علي .

وأعمال هؤلاء الغجر يقوم بها النساء ، حيث إنَّ أغلب رجالهم لا يعملون ، إنما ينتظرون نساءهم في خيامهم أو بيوتهم كي يأتين لهم بالطعام والأموال ، وقد يجلس بعض رجال الغجر قريبا مِن النساء بينما تعملن لحمايتهن مِن بعيد .

وأعمالُ النساءِ تنحصر في التسول والسرقة والرقص والغناء ورسم الوشوم على الأجسام ، هذا إلى جانب قراءة الكف والطالع ، ولا ينسى أحد تلك الجملة المعروفة منهن " أبين زين وأضرب الودع " ، فتلك الجملة نسمعها كثيرا تخرج مِن غجرية على شاطىء البحر أو ضفة النيل .

أما بعض الرجال الذين يعملون منهم فهم يحترفون أعمال الحواة في الموالد الشعبية ، وصناعة المناخل مِن شعر الخيل ، ومَنْ يَشعرْ بالحاجة منهم يُضْطَرْ إلى التسول لكسب قوته .

أما عن تلك الغجرية وعد قابيل المحروس ، فقد نزحتْ مع أهلها إلى القاهرة مِن قرى طهواي بالدقهلية ، ثم استأجروا سكنا لهم بمنطقة الغجر بحي مصر القديمة بجوار سور مجرى العيون .

وكان أول عهد هذا المكان بتلك المرأة حيث إشارة تقاطع شارعي الطيران ومصطفى النحاس قد بدأ منذ كانت فتاة في الخامسة عشرة مِن عمرها قبل أنْ يخرج الدكتور مالك الأمير مجنونا إلى الشوارع بسنوات ، حيث كانت هناك متسولات معروفات تحتل هذا المكان ، منهن غجريات ، ومنهن غير غجريات ، ومنهن مَن تتظاهرن ببيع المناديل الورقية ، ومنهن مَن تحملن أطفالا وتوزعن وريقات على راكبي السيارات بأنهن أرامل يحتجن للمساعدة العاجلة لأنَّ معهن أطفال دون طعام ودواء وكساء ، ومنهن قطعا مَن تتسول طالبة المساعدة بطريقة مباشرة دون قناع ، وما أكثر هؤلاء! .

وكان يوما مِن أيام الشتاء الباردة سنة ١٩٩٤، عندما جاءت الفتاة وعد الغجرية للتسول مع نهاد ابنة خالتها .. أعجب المكان وعد كثيرا ، ومنذ ذلك اليوم صارت لا تغادره إلا لتعود ، وشيئا فشيئا فرضتْ سيطرتها عليه بجرأتها ومكرها

وأنوثتها الطاغية .. تختفي منه أياما تقصر أو تطول ثم تظهر كما تريد ، مرة بالنقاب وهي تحمل طفلا رضيعا أو طفلة ، ومرة بوجهها المكشوف بعد أنْ ترسم عليه علامات الفقر والمسكنة ، وهي تستجلبُ المساعدة مِن الناس بطريقةٍ تحمل مودة وتظاهر بالطيبة والوداعة ، وطرقٍ أخرى فيها كثير مِن الخلاعة وإثارة غرائز الرجال خاصة الشباب والمراهقين في أغلب الأحيان .

كانت وعد الغجرية ساحرةً حقا ، تُثير الجسمَ والقلبَ معا ، وتحيها العينُ وتثقُ بها منذ أنْ تراها ، لكن ما هي إلا لحظةٌ تُغْمِضُ عينيكَ عنها لتفتحها على لذعةٍ منها أبشعَ ألما مِن لذعةِ العقرب ، فتصير ولو كنتَ مِن أقوى الرجالِ مرتميا عند قدميها ذاهلا بين الحلمِ والحقيقة .. حرباء تتلوَّنُ بألف لون ، وأفعى تنفثُ سمومها بداخلك دون أنْ تدري بنفسك إلا طريحَ الأرضِ تصارعُ الموتَ الأليم ، وهي تعشقُ المالَ عشقا جما يفوقُ عشقَ الأم لوليدها آلاف المرات ، وتكذب ، تسرق ، تزني ، تقتل ، تفعل كلَّ شيء مِن أجل المال ، وإنْ حلَّت بمكانٍ تركتْ خلفها جريمة كبيرة غامضة مُعَقَّدة ، ومع ذلك كله إنْ ترها فقد تظنها ملاكا .

عندما كانت في العاشرة مِن عمرها عادت لأمها ألطاف وبيدها حلقٌ ذهبي عليه آثار دماء .. سألتها أمها :

- وعد .. ما هذا؟

أجابتها بكل هدوء :

- جذبته مِن أذن طفلة في الشارع

سألتها أمها سريعا :

- هل رآكِ أحد؟

- لا

- احذري دائما .. ولا تجعلي أحدا يراكِ

وفي الثالثة عشرة مِن عمرها خرجت لتجمع القطن في أحد الحقول .. راودها ابنُ صاحب الحقل عن نفسها مقابل جنيهين فوافقتْ ، وفعلا ما فعلا ليلا دون وصولٍ للنهاية ، وعادت لأمها بالجنيهين مبتهجة فقالت لها الأم ألطاف بهدوء :

- يا وعد .. المثل يقول إنْ سرقت اسرق جمل .. وإنْ عشقت اعشق قمر

فقالت لها ابنتها :

- ماذا تقصدين؟

أجابت الأم بكل بساطة :

- ما بين فخذيك هذا غالٍ جدا يا وعد .. إنه ثروة .. فلا تفرطي فيه إلا بالمال الكثير

- فهمتُ .. واطمئني أنا لم أفرطْ فيما تقصدين

وكانت الأم هي صاحبة فكرة انتقال الأسرة إلى القاهرة مِن أجل العمل في التسول بالميادين الكبيرة ، لذلك فقد راحت تعد ابنتها وعد لهذا جيدا .. جلستْ معها ودرَّبتها مع كثير مِن نصائح الشر.

وها هي الغجرية وعد المحروس ابنة الغجرية ألطاف تقف بالإشارة تتسول وهي ترتدي ثيابا مزركشة ومزينة بألوان كثيرة متداخلة ، وتضع فوق رأسها غطاءَ رأسٍ بنفس ألوان ثيابها ، ويسري في وجهها حمرةٌ مميزة تنم عن اختلاف أصلها عن أصول بقية المصريين رغم مولدها ونشأتها في مصر ، ويبدو قوامها ساحرا داخل ثيابها الواسعة في الغالب ، والتي لا تحدد تفاصيل جسدها أكثر مِن أنْ تُنْبِيء عن أنَّ صاحبته أنثى كاملة الأنوثة ، وتتعمد دائما أنْ تترك الحرية لخصلات مِن شعرها كي تتدلى مِن تحت غطاء رأسها لتعلن للناس عن نعومته وجماله ، وأما عن عينيها

فهما واسعتان زرقاوان تشعان سحرا وشرا ، مَن يرها ويُمْعِن النظر في عينيها يصدق فورا تلك المقولة : (العيون الزرقاء عيون ماكرة خبيثة) .

كانت تجمع حولها كلَّ العيون ، وكم أضاع سائقو السيارات الخاصة والعامة لحظات انتظارهم قبل السماح لهم بتخطي الإشارة في تتبعها ومراقبة حركاتها وابتسامتها وكلماتها وطريقتها في التسول التي جذبتْ كل الأنظار وكل الأموال ، وقد أثارت بسبب ذلك منذ يومها الأول شجارا وعراكا مع امرأة غجرية متسولة مثلها اسمها نوال .. قالت نوال غاضبة :

- هذه الإشارة نحن نملكها فابحثي لكِ عن مكانٍ آخر.. صرنا لا نستطيع أنْ نعمل بسببك

نظرتْ لها وعد وابتسمتْ ابتسامة ثقة ثم أجابتها باستهزاء :

- لا تكرري كلامك هذا لي وإلا ستندمين

قالت نوال وهي أكثر غضبا :

- أنا هنا منذ زمن .. هذا مكاني أنا ومَن معي

- أنتِ غجرية وتعرفين أننا الغجر نملك كل الأرض .. نحن نضع أقدامنا في المكان الذى يحلو لنا

- هذا مكان عمل وليس خيمة أو بيتا .. وقد جئتُ إلى هنا قبلك

- لن أترك هذا المكان .. وأريني ماذا ستفعلين؟

وذهبتْ نوال مسرعة إلى نهاد ، وقالت لها :

- نهاد .. لقد سمحنا لكِ أنتِ فقط بالعمل هنا معنا .. لكننا لا نسمح لوعد قريبتك .. لا نعرف مِن أين جئتنا بتلك المصيبة

قالت نهاد وهي تبتسم :

- وعد هناك .. اذهبي وقولي لها هذا الكلام .. لكن نصيحة فكري أولا .. وعد لا يقدر عليها أحد

- أنتِ مَن جئتِ بها هنا .. خذيها وفارقينا لأي مكان آخر

قالتها نوال بغضب ، فضحكتْ نهاد وقالت لها :

- قلت لكِ .. لو تملكين الجرأة فاذهبي وقولي لها ذلك

وعادت نوال إلى وعد وقالت لها بكل صرامة :

- لا تأتي إلى هنا بعد ذلك .. لن نتركك تحتلين مكاننا .. هل فهمتِ كلامي؟

ضحكتْ وعد ضحكة ساخرة قائلة :

- قلتُ لكِ مِن قبل .. أنا لن أترك هذا المكان .. فلقد أعجبني العمل هنا

ورفعتْ نوال يدها لتجذبها مِن شعرها ، فأمسكتْ وعد بها ، وجذبتها على الأرض بحركة سريعة كأنها تدربتْ عليها كثيرا مِن قبل ، ثم أخرجت مِن فمها شفرة حلاقة ، وأحدثتْ بكل خفة ومهارة قطعا بظاهر كف نوال وهي تقول لها بثقة :

- هذه إصابة بسيطة في يدكِ التي رفعتها لإيذائي .. المرة القادمة سأشوه وجهك

واجتمعتْ المتسولات الأخريات حولهما يحجزن بينهما ، ونوال تنظر إلى الدماء التي سالت منها وتصرخ وتلطم خديها وهي تضغط على مخرج الدماء بمناديل ورقية لتتوقف ، ثم انسحبتْ مِن مكانها ، واتخذتْ لنفسها مكانا فوق الرصيف بجوار شجرة استندتْ عليها ، ثم راحت تنظر لوعد في غيظ وحقد ورغبة في الانتقام ، ووعد لا تلتفتْ إليها ، بل راحت تواصل عملها ، وقد تجمعتْ عندها كل أموال المارة المعجبين بجمالها وخفة تحركاتها وطريقتها المميزة في التسول وجذب الأنظار.

فقد كانت جذابة جدا ، وذكية جدا ، شريرة جدا ، ماكرة جدا وجريئة ، وكانت تجيد القراءة والكتابة وتفهم الكثير .. مَن يتحدث لها يظنها حاصلة على أعلى الشهادات الجامعية ، فقد ربتها أمها ألطاف على شرها ومكرها تربية خاصة مقصودة لتجعلها واعية قوية الثقة بنفسها ، فصار لها آراءٌ خاصةٌ في كل شيء ، وهي مع ذلك أو مِن أجل ذلك ساخطة على كل الأعراف والتقاليد والموروثات ، دائمة الحقد والحسد لكل مَن فوقها ، ولا تتقي أحدا على الإطلاق على خلاف الغجر الذين يؤثرون الخضوع واتقاء الناس ، وكانت شديدة الطموح شديدة التطلع إلى ما في يد غيرها ، وعازمة على أنْ تناله بأية طريقة ، المال والقصور والرجال والبنات والبنين ، كل شيء .

في اليوم التالى جاءت نوال بزوجها معها للانتقام مِن الشيطانة وعد ، ولم تكن وعد قد وصلتْ المكان ، فجلس الزوج ينتظرها حتى جاءت فوقف لها ، ثم اتجه ناحيتها .. قال لها :

- مِن عائلة مَن أنتِ؟

نظرتْ له بازدراء ، ثم نظرتْ ناحية نوال ، وفهمتْ أنه يتبعها ، فقالت في سخرية:

- هل جئتَ لتخطبني؟

فتعجب الرجل مِن جرأة كلامها ، ونظر إلى زوجته وقال لها :

- جئتُ كي آخذ حق زوجتي .. فمِن أي عائلات الغجر أنتِ؟

- مِن عائلة المحروس .. والدي اسمه قابيل .. هل تعرفه؟ .. الذي قتل هابيل

فنظر لها الرجل بقلقٍ واستغرابٍ مِن جرأتها وكلامها وسألها :

- لماذا ضربتِ زوجتي بالأمس؟

- كنتُ أؤدبها حتى لا ترفع يدها عليَّ مرة ثانية

- لو كانت بلطجة فبإمكاني أنْ أكنس بكِ تراب الشارع الآن

- والله لن تستطيع .. وأحسن لكَ أنْ تنصرف الآن

- بل انصرفي أنتِ .. هنا مكان عملها .. هي صاحبة المكان .. وأنتِ جئتِ لتأخذيه منها

- لن أترك هذا المكان

- ستتركينه رغما عنكِ وعن أهلك

وهنا صاحت وعد ترفع صوتها وتُمسك بملابس الرجل وتصرخ :

- الحقوني .. الحقوني .. هذا الرجل يحاول أنْ يمسك صدري .. الحقوني يا ناس

واجتمع الناس حولها، ونزل الكثيرون مِن سياراتهم يحيطون بالرجل ويوسعونه ضربا وتوبيخا، ثم جاء رجل المرور وكان قريبا منهم، فتحيَّز لوعد ثم اتصل بقسم الشرطة القريب، فجاء ضابط وأمينان ، واقتادوا الرجل إلى هناك .

وذهبتْ وعد للقسم، وأخبرتهم كذبا أنَّ الرجل تحرَّش بها، وأسمعها كلماتٍ بذيئة، فلما عارضته هددها، وطلبتْ مِن ضباط القسم أخذ تعهد عليه وعلى زوجته بعدم التعرض لها، وكررتْ أمامهم أنَّ مسئولية أمنها تقع عليهم، فتعهَّد لها الضباط بحمايتها ، وأوسعوا الرجل ضربا وشتما حتى أنهم لم يسمحوا له بالتفوه بكلمة واحدة ، ثم وضعوه في الحبس شهرا إكراما للغجرية الجميلة .

ومرَّ أكثر مِن شهر على تلك الواقعة ، وإذا بالغجرية نوال تأتيها بخمس نساء ، وكانت وعد قد بدأتْ عملها في هذا اليوم في ساعة مبكرة دون أنْ تأتي معها ابنة خالتها نهاد .. كانت تحمل مجموعة مناديل كأنها تبيعها .. تقدمتْ نوال ناحيتها ومقاصد الشر تبرق في عينيها ..

قالت لوعد :

- أريني اليوم كيف ستصرخين وتقولين أنَّ زوجي تحرَّش بك أيتها العاهرة؟

قالت وعد بكل ثقة وغضب :

- ألم أحذركِ مِن قبل؟ .. هل تريدين أنْ أشوه وجهك؟

وهنا مدَّت نوال يدها لتغرس أصابعها في وجه وعد قائلة بكل حقد :

- سأريكِ مَن ستشوه الأخرى

وأمسكتْ وعد بيدها تبعدها عن وجهها ، ولكن نوال بالفعل كانت قد وصلتْ بأظافرها الحادة إليه ، وسال الدم على وجه وعد ، وتكاتفتْ عليها النساء الأخريات حتى ألقينها على الأرض ، لكنها لم تستسلم ، وراحت تحاول التملص مِن تحتهن وهي تمد إحدى يديها إلى داخل جوربها لتخرج شيئا ، وبالفعل أخرجتْ مطواة ، وفتحتها وزجَّتْ بطرفها مَن استطاعت أنْ تطالها منهن طعنا وتقطيعا ، فصرخن تحتها واحدة تلو الأخرى ، وقُمْنَ عنها يتحسسن مواضع طعناتهن ، ولم يتبقَ سوى نوال التي نهضتْ مِن تحتها لتجري ، فطاردتها وعد بكل إصرار كي تمسك بها ، وأمسكتْ بها ، وبحركة سريعة خفيفة كانت قد أحدثتْ بوجهها قطعا غائرا ، وراحت نوال تصرخ مِن شدة الذهول والألم ، ووعد تقول لها بعينين بارقتين :

- ليس هذا فقط .. إنما سأسجنك أيضا يا بنت الكلب

وتوجهتْ وعد على الفور إلى قسم الشرطة وهي تبكي وتذرف كثيرا مِن الدموع ، وأبلغتهم بأنَّ نوال التي تعدتْ عليها بالضرب مِن قبل قد عادت ومعها خمس نسوة لضربها ، وهنَّ مَن أحدثْنَ الجروح التي بوجهها ، وذكَّرتهم بأنَّ زوج نوال كان قد تعهَّد هنا في القسم بعدم التعرض لها سواء بشخصه أو بتحريض آخرين ، فاستجلبتْ بذلك عطف كل مَن سمعها ، وعلى الفور خرجتْ قوةٌ مِن القسم

فألقتْ القبض على نوال والنسوة معها ، وكانوا قد أطلقوا سراح زوجها ، فأعادوه إلى الحبس ثانية .

يقولون إنَّ الغجر لا يعرفون اليأس ، وأنكَ إنْ قطَّعتَ غجريا إلى عشر قطع ، فلا تظن أنكَ أنهيته أو قتلته ، إنما أنتَ بذلك قد صنعتَ منه عشرة غجريين آخرين ، وهذا صحيح ، فقد عادت نوال بعد خروجها ومعها نساءٌ كُثُرورجالٌ تابعون لها يقفون على البعد ، وتقدمتْ ناحية وعد تقول بكلِّ تحدٍّ :

- رجعتُ لكِ أيتها الشيطانة

فنظرتْ وعد لها ولمن معها وقالت بمكروتودد :

- نوال .. ألن نتوقف عن المشاكل؟

ضحكتْ نوال بسخرية قائلة :

- أنتِ أساسا سبب كل المشاكل

وسكتتْ وعد قليلا ، ثم قالت لنوال بطريقة تحمل تودادا أكثر:

- نحن جميعا يا نوال مِن غجر النَّور ويربطنا أصل واحد .. ولن تفيدنا العداوة .. وتعرفين أنَّ الغجر هم أبناء الرياح .. حياتنا كلها خفة وتنقل وترحال .. اليوم هنا وغدا هناك .. لذلك سأعرض عليكِ عرضا أفضل .. أريدكِ معي وزيرة في جمهوريتى .. وربما أترك لكِ الحكم يوما .. فما رأيك؟

ونظرتْ لها نوال بذهول ، وفتحت فمها دون أنْ تنطق ، حيث لم تفهم كلمة مما قالتها وعد ، فعرفتْ وعد أنها لم تفهمها فضحكتْ قائلة :

- ملخص كلامي أني أعرض عليكِ أنْ تعملي هنا تحت زعامتي .. ستكونين نائبة لي

ويبدو أنَّ نوال قد فهمتْ أخيرا ، وراق لها هذا الأمر ، فانتظرتْ قليلا تسمع لها ، ثم عادت إلى النساء والرجال ، وطلبتْ مِن الجميع الذهاب فذهبوا ، وعادت إلى وعد تخبرها :

- وعد .. أنا موافقة
- أخيرا يا نوال تركنا عداوتنا
- لكن في غيابك أنا الزعيمة هنا
- في وجودي وغيابي أنتِ نائبة لي وفقط .. أنا الزعيمة دائما يا نوال .. فهل اتفقنا؟
- اتفقنا

وبهذا تسيَّدتْ وعد الغجرية عرش هذا المكان بكل حكمة وقوة وذكاء ، ونائبتها الغجرية نوال ، إذ لم يكن أمام نوال إلا قبول ذلك خيرا مِن لا شيء ، فقد فهمتْ أنَّ الأمر سيؤول في كل الأحوال لوعد سواء انتقمتْ منها بضربها أم لا ، وعلمتْ أنَّ بجعبة وعد الكثير مِن الحيل والمكائد التي تعينها على ألا تستسلم لها بسهولة ، فرضيتْ بعرض وعد ، وأحبتها مع الأيام فأخلصتْ في النيابة عنها ، ولم تملك أية متسولة أو بائعة بعد ذلك الجرأة لأنْ تنزل إلى أرض تلك الإشارة لتعمل إلا بعد أنْ تذهب لوعد ملكة المكان ، وتدفع لها مبلغا ماليا في البداية يُسمى تأمينا ، ثم يتفقان على إتاوة يومية تُدفَع لوعد إنْ كانت موجودة ، أو لنوال في غيابها ، أو لابنة خالتها نهاد في غياب الاثنتين .

وكان هناك شاب قد تعوَّد أنْ يمرَّ مِن هذا المكان بسيارته تكرارا ، ثم يوقف السيارة جانبا ، ويظل ينظر منها إلى الفتاة الغجرية المتسولة وعد ، ينظر لها ويبتسم ، ويتابعها في كل حركاتها ، وقد انتبهتْ وعد لذلك ، لكنها كانت تتظاهر بعدم

الاهتمام .. كان الشاب فوق الخامسة والعشرين ، قصيرا ممتلئا ، ناعم الشعر قليلا ، أسمر اللون كثيرا ، صاحب ابتسامة ساذجة .. أرسل لها ورقة مطوية مع طفلة صغيرة متسولة ، ثم وقف يراقب ردَّها .. تناولتها وعد بكبرياء وقرأت (وعد .. أريد أنْ أتحدث معكِ على انفراد .. فهل تسمحين؟)

نظرتْ الغجرية وعد ناحيته حتى تأكدتْ أنه يراها ، فرفعتْ الورقة عاليا ثم مزقتها ، ورمتها جانبا ، وراحت تواصل عملها في التسول ، فابتسم الشاب ابتسامة حذرة ، ثم أدار سيارته وانطلق .

وعاد في اليوم التالي ، فأرسل لها ورقة أخرى يقول : (وعد .. إنَّ غرضي شريف .. أين تسكنين؟ .. أريد أنْ أتقدم لكِ لأتزوجك .. سالم السعدي)

وعادت ونظرتْ له ، ثم ذهبتْ له بالورقة وهي تُطْبِق يدها عليها ، ورمتها أمامه قائلة وهي تبتعد عنه :

- أنا غجرية .. والغجرية لا تتزوج مِن الأغراب .. أظنكَ لا تفهم ذلك فلا تضيع وقتك

فابتسم سالم السعدي وناداها فلم تلتفت له ، فأدار سيارته وانطلق .

وفي اليوم التالى أوقف سيارته ، وأرسل لها مع طفلٍ متسولٍ شالا كان يلفه حول عنقه ، فتناولته ثم نظرتْ له وابتسمتْ ثم ظلتْ لفترة مترددة ، يبدو خلالها أنها تفكر في شيء ، وتوازن خلال ثوانٍ بين كل اختياراتها المستقبلية ، وكان سالم ينظر لها وينتظر الرد في قلق ، وأخيرا نظرتْ وعد ناحيته وابتسمتْ ، ثم لفَّت الشال حول عنقها ، فنزل مِن سيارته فرحا منتشيا ، واتجه ناحيتها وعلى وجهه ابتسامة كبيرة .